المجموعات الإثنية على النيل الأزرق وتصنيف لغاتها

كمال محمد جاه الله

تحاول هذه الورقة التعريف بأهم المجموعات الإثنية التي اتخذت مسكناً لها بجوار النيل الأزرق بجمهورية السودان، ومن ثم تصنيف اللغات التي تتحدثها تلك المجموعات. وعلى ذلك فإن حدود مجال الورقة تبدأ من دخول النيل الأزرق من إثيوبيا عند نقطة الديم مروراً بعدد من المدن المهمة مثل الدمازين والروصيرص وسنجة وسنار وود مدني حتى التقائه بالنيل الأبيض في الخرطوم.

ووفقاً للتقسيم الولائي للسودان الذي تم في عام ١٩٩٤ سنركِّز جلَّ اهتمامنا على التركيبة السكانية لعدد من الولايات التي لها نصيب من هذا النيل، تبدأ من ولاية النيل الأزرق وعاصمتها الدمازين، ثم ولاية سنار وعاصمتها سنجة، ثم ولاية الجزيرة وعاصمتها ود مدني، وأخيراً الجزء الملاصق لولاية الجزيرة من ولاية الخرطوم التي عاصمتها الخرطوم.

النيل الأزرق:

قبل أن نسترسل في موضوع الورقة ينبغي أن نفرد حيِّزاً للتعريف بالنيل الأزرق الذي تسكن بجواره تلك المجموعات الإثنية. يعتبر النيل الأزرق (الأزرق بمعنى الداكن لكثرة ما يحمله من طمي) أهم الروافد التي تغذي النيل، ويخرج من

جنوب بحيرة تانا.[١] ويعرف عند مخرجه من البحيرة بنهر آباي، ويتجه النيل الأزرق نحو الجنوب الشرقي في البداية، ثم يدور على هيئة نصف دائرة قبل أن ينحدر نحو الشمال الغربي إلى سهول السودان. والنهر فيما بين تانا والروصيرص يكون جبلياً شديد الانحدار ضيِّق المجرى عميقه، يعترضه الكثير من المساقط التي تعرقل الملاحة، وفيما بين الروصيرص والخرطوم يقل انحداره وتكثر فيه الانحناءات والالتواءات، ويصلح للملاحة وقت الفيضان.[٢]

وعلى الرغم من أن فيضان النيل الأزرق لا يستمر إلا خمسة أشهر فقط، من يونيو إلى سبتمبر، فإنه يغذي في أثناء تلك المدة بمقدار من المياه يبلغ ٥٧٠٠ متر مكعب في الثانية، يهبط بعدها إلى ١٨٠ متر مكعب في الثانية قبل موسم الفيضان، ويسهم النيل الأزرق بنحو ٧٠٪ من مجموع مياه فيضان نهر النيل.[٣] ولولا النيل الأزرق لما استطاع النيل أن يكون نهراً دائم الجريان في النوبة ومصر.[٤]

يقدر طول رحلة النيل الأزرق من منبعه في بحيرة تانا إلى التقائه بالنيل الأبيض في الخرطوم ليشكلا نهر النيل ب ٨٤٦ ميلاً.[٥] وقد ارتبطت كشوف النيل الأزرق

(١) تقع بحيرة تانا في الشمال الغربي لأثيوبيا، ويبلغ ارتفاعها ١٨٤٠ متر، ومساحتها ٣٠٦٠ كلم مربع، والبحيرة ذات شكل مستدير بصورة عامة تصب فيها مجموعة من الجداول والنهيرات أهمها نهر آباي الأعلى (انظر: محمد عبدالغني سعودي (د ت): إفريقية – دراسة شخصية الأقاليم، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ص (٥١).

(٢) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(٣) جودة حسين جودة (١٩٩٦): جغرافية إفريقية الإقليمية، الإسكندرية: منشأة المعارف، ط (٩)، ص (١٦٩).

(٤) محمد رياض وكوثر عبدالرسول (١٩٧٣): إفريقيا – دراسة لمقومات القارة، بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ط (٢)، ص (١٢٤).

(٥) نعوم شقير (١٩٧٢): جغرافية وتاريخ السودان، بيروت: دار الثقافة، ص (١١).

بالرحالة الإسكتلندي جيمس بروس، الذي بدأ رحلته من جدة إلى مصوع ومنها إلى غندر عاصمة الحبشة آنذاك، وهناك تجوَّل في المنطقة وتتبع نهر آباي، أحد الروافد الرئيسة لبحيرة تانا وطوله ٧٠ ميلاً، وشاهد منطقة النيل الأزرق وسقوط مياهه فوق شلالات تسيسات على مسافة ٢٠ ميلاً منها، وتتبع النيل الأزرق من سنار إلى نقطة التقائه بالنيل الأبيض. ومن تجوالاته ورحلاته قدَّم خرائط توضيحية لمجرى النيل الأزرق.(٦)

إن بروس الذي اكتشف منابع النيل الأزرق ووصفها وصفاً دقيقاً في سنة ١٧٧٢م لم يكن أول من قام بهذه المحاولة، فقد سبقه إليها راهبان برتغاليان هما بايز ولوبو سنة ١٦١٨م، ولكنهما لم يوضحا الحقيقة كما أوضحها بروس، لذا فقد تفرَّد وحده بهذه الشهرة.(٧)

كيفما كان الحال، فإن النيل الأزرق يمر بأربع ولايات هي النيل الأزرق، وسنار، والجزيرة، والخرطوم، ويشكِّل مصدر الحياة للمجموعات السكانية حوله بما يوفره من مياه لري الزراعة ومن فرص لصيد الأسماك، وبما يمد به من طاقة كهرومائية مصدرها خزان سنار وخزان الروصيرص، وغير ذلك.

ويعتمد على هذا النهر أيضاً واحد من أضخم المشروعات الزراعية في إفريقيا، وهو مشروع الجزيرة (وامتداد المناقل) الذي أنشأه الإنجليز في عشرينيات القرن الماضي، وما يزال له دوره المتعاظم والمفصلي في الاقتصاد السوداني. كما قامت

(٦) محمد مرسي الحريري (١٩٨٨): جغرافية القارة الإفريقية، الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ص (٦٨).

(٧) نعوم شقير، مرجع سابق، ص (١٩).

على ضفاف هذا النهر واحدة من أعظم الممالك السودانية التي كان لها دور عظيم في نشر الثقافة العربية والإسلامية في هذا القطر، ألا وهي مملكة الفونج التي كانت عاصمتها سنار.

فلا غرو إذن أن يجتذب النيل الأزرق بما توفر له من عوامل جذب متعددة أعداداً كبيرة من السكان للعيش على ضفافه منذ القدم وحتى يومنا هذا، ولا غرو أيضاً أن تنشأ مدن لها دور بارز في القطر كله مثل ود مدني وسنار وسنجة وغيرها.

المجموعات الإثنية على النيل الأزرق:

ليس مهمة هذه الورقة حصر جميع المجموعات الإثنية التي تجاور النيل الأزرق، وإنما الإشارة إلى أهمها من منظور الحضور الديمغرافي الواضح وربما التي تحتل مساحة معتبرة عليه، وهذا يتطلب إما الاعتماد على التقسيم الولائي في تتبع تلك المجموعات أو الاستناد على أهم المدن حتى يسهل تتبع المنطقة التي يمر بها النيل الأزرق منذ دخوله السودان حتى مدينة الخرطوم. ولما كان الجمع بين ذكر الولاية وذكر أهم المدن على خط النيل الأزرق يساعد على سهولة تتبع أهم المجموعات الإثنية ثم أهم اللغات، فإننا سنحاول التزام ذلك ما استطعنا إليه سبيلاً. ولنبدأ من ولاية النيل الأزرق التي تمثل أول منطقة يعبرها النيل الأزرق عند دخوله أرض السودان من أثيوبيا.

تُعد ولاية النيل الأزرق من أكثر مناطق السودان تنوعاً بالمجموعات الإثنية، ولعل مرد ذلك إلى ما تميزت به من موارد اقتصادية مختلفة، حيث أن ٨٠٪ من أراضيها صالحة للزراعة، كما أن بها ثروة حيوانية وغابية كبيرة، بالإضافة إلى تعدين الكروم، وخزان الروصيرص الذي يمثل مصدر أكبر طاقة كهرومائية في السودان حتى الآن. ويبدو أن ذلك كله قد ساهم على الأقل في استبقاء المجموعات الإثنية المحلية بالمنطقة.

يمكن تقسيم أهم المجموعات الإثنية التي تسهم في التركيبة السكانية في ولاية النيل الأزرق إلى خمس مجموعات:

أ) مجموعة القبائل المحلية (الأصلية): وتضم حوالي ٢٠ قبيلة، منها: البرتا والبرون والإنقسنا والهمج والفونج والقمز والأدوك والكوما والقنزا والمابان.

ب) مجموعة القبائل العربية: وتضم الأشراف وكنانة والكماتير ورفاعة وغيرها.

ج) مجموعة قبائل غرب السودان: وتضم حزمة من القبائل المحلية لدارفور وتشمل الفور والمساليت والزغاوة وغيرها.

د) مجموعة قبائل غرب إفريقيا: وتضم حزمة من القبائل التي هاجرت عبر دارفور وكردفان وتحركت شرقاً حتى استقر بها المطاف في هذه الولاية، ولعل أهمها الفولاني والهوسا والبرنو.

هـ) مجموعة قبائل جنوب السودان: وتُعد هذه المجموعة أقل المجموعات حضوراً في الولاية، إذ ارتبطت هجراتها إلى الولاية بفترتين، الأولى عند بناء خزان الروصيرص في أوائل ستينيات القرن الماضي، والثانية بعد اشتداد معارك حرب الجنوب التي اندلعت شرارتها في بداية ثمانينيات القرن الماضي، ويمثل هذه المجموعة الدينكا والشلك.[٨]

(٨) بابكر حسن قدرماري (٢٠٠٤): "التركيب القبلي لسكان ولاية النيل الأزرق"، ضمن أوراق من منتدى مركز البحوث والدراسات الإفريقية، المجموعة الأولى، تحرير: كمال محمد جاه الله، مركز البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة إفريقيا العالمية، إصدارة رقم (٤٦)، ص ص (٦٥ – ٦٦).

أ- مجموعة القبائل المحلية:

إذا أفردنا الحديث عن القبائل المحلية فسنختار منها ثماني قبائل، هي: البرتا والبرون والإنقسنا والفونج والهمج والقمز والقنزا والمابان، وذلك لأهميتها من حيث الحجم السكاني.

فالبرتا تعد كبرى القبائل المحلية من حيث الكثافة السكانية، وهي مجموعة زنجية الأصل، مقرها الرئيس منطقة بني شنقول، وجلُّها يعيش حالياً في الأراضي الأثيوبية. وينتشر البرتا في جميع محافظات ولاية النيل الأزرق (الدمازين، والروصيرص، وباو، والكرمك). وأهم مدنهم الكرمك والكيلي وأورا ويابوس وبكوري وقيسان والدمازين. والبرتا بطون تسكن سفوح عدد من الجبال تبدأ بالفاء، منها فادوما وفامادودو وفارونجا وفالد وغيرها.[٩] وقد كان البرتا وثنيين، إلا أنهم أسلموا في وقت مبكر مع قدوم الهجرات العربية الأولى للمنطقة.

أما البرون فيعدُّون ثاني أكبر مجموعة سكانية بين القبائل المحلية، وهي مجموعة زنجية كالبرتا كانت تدين بالوثنية سابقاً، فاهتدت مجموعة منهم إلى الإسلام، ومجموعة أخرى تنصرت بحكم وجود كنيسة إنجيلية في شالي بمنطقتهم، بينما بقيت مجموعة كبيرة منهم على الوثنية إلى الآن. وتنتشر هذه القبيلة في منطقة الكيلي والكرمك وشالي، ومن مدنهم وقراهم جرط، ومَيَك (Mayak)، ومَقَجا (Maghaja)، وبالدُقو (Baldugu)، وموفو (Mufu)، وبني شكو (Shakau)، والسلّك (Sillak)، ومَلْكَنْ (Malakan) داخل مناطق الإنقسنا.[١٠] ويقول نعوم شقير عن البرون إنهم

(٩) المرجع نفسه، ص (٦٦).

(١٠) المرجع نفسه، ص ص (٦٦ – ٦٧).

يسكنون الجبال التي إلى جنوب خور الدليب في أقصى جزيرة سنار وهم في غاية الهمجية.[١١]

وقبيلة الإنقسنا تمثل ثالث مجموعة سكانية تعداداً من بين القبائل المحلية، ويوجدون في منطقة جبلية تمتد نحو الخمسين كلم من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب بين النيلين الأبيض والأزرق. وقد استطاع الإنقسنا إلى حد كبير الاحتفاظ بسماتهم ولم يتأثروا كثيراً بالحضارات التي حولهم. ولعل نجاحهم في الاحتفاظ بحضارتهم وانعزالهم التام يتضح جلياً في احتفاظهم بلغتهم، كما يتضح ذلك في فشل المسلمين في بث الدين الإسلامي في أوساطهم.[١٢] وهذه الأوصاف الأخيرة للإنقسنا تصلح حتى سبعينيات القرن الماضي، أما بعد ذلك فقد ازداد انفتاحهم على الآخرين، وإن كان بطيئاً ومتردداً.

يمارس الإنقسنا – بالإضافة إلى رعي الماشية – الزراعة، وتنقسم أراضيهم الزراعية أو مزارعهم إلى ثلاث شرائح في الغالب، أولها زراعة الكال، وهي المزرعة حول القطية، وثانيها الزراعة بالقرب من المرتفعات الجبلية، أما الثالثة والأهم فهي زراعة السهول الطينية البعيدة والتي يطلقون عليها "القفا".[١٣]

يتميز الإنقسنا بكونهم ينسبون أنفسهم للجبال التي حولهم، إذ ليس لديهم فروع بالمعنى المتعارف عليه وسط القبائل، وذلك أن كل مجموعة منهم تنسب نفسها للجبل الذي تقطن حوله، بل إن الذي يرتحل من أهله لا ينتسب إلى فرعه السابق،

(١١) نعوم شقير، مرجع سابق، ص (٥٦).

(١٢) إدارة البحث والمسح الاجتماعي (١٩٧٦): الدراسة الاجتماعية الاقتصادية لمنطقة جبال الإنقسنا، وزارة الشئون الاجتماعية (السودان)، إدارة البحث والمسح الاجتماعي، ص ص (١-٢).

(١٣) المرجع نفسه، ص (٤).

ولكنه ينتسب إلى الفرع الجديد، أي الجبل القاطن حوله. ويرجع انتسابهم للجبال لاعتقادهم أن هذه الجبال تحميهم من الشرور والغارات في الأزمنة السابقة، كما يعتقد البعض أن أجدادهم أتوا من هذه الجبال التي بلغ تقديسهم لها إلى الحد الذي أصبحوا يقسمون بها.(١٤)

أهم القرى التي تنتشر فيها قبيلة الإنقسنا هي: باو وبك وفادمية وسودا وكُكُر وطيقو وبقيس وكمريك وقبانيت. وما زال التعليم ضعيفاً وسطهم حتى اليوم. وقد كانوا على الوثنية ثم أسلم أكثر من نصفهم وبقيت البقية على وثنيتها.(١٥)

وأما الفونج فهم عنصر قديم وأصيل في ولاية النيل الأزرق، اختلف حول أصلهم (حسبما يورد لنا عبدالمجيد عابدين). فيرى السائح الإسكتلندي بروس Bruce الذي مر على بلادهم في أواخر القرن الثامن عشر أن أصلهم من الشلك الزنوج الذين يسكنون على الضفاف الغربية للنيل الأبيض عند خط عرض ١٣°، ولكن هذا الرأي أصبح مستبعداً بعد أن هاجمه الباحثون وأثبتوا عدم صحته. وقيل إن الفونج جاءوا من الحبشة، وأصلهم سلالة عربية أموية هربت من وجه العباسيين، وهي رواية وطنية سودانية يؤيدها شاتاوي Chataway. ويتجه الرأي الثالث لا إلى الشلك ولا إلى الحبشة، ولكن إلى منطقة بحيرة تشاد، وهذه المنطقة كما أثبت بالمر Palmer وغيره من الباحثين كانت مرتعاً خصباً للمؤثرات الحبشية.(١٦)

(١٤) المرجع نفسه، ص ص (٩ – ١٠).

(١٥) بابكر حسن قدرماري، مرجع سابق، ص (٦٧).

(١٦) عبدالمجيد عابدين (١٩٦٧): تاريخ الثقافة العربية في السودان، بيروت: دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، ط (٢)، ص ص (٤٨ – ٥١).

والحق أن الحديث حول الآراء المتعلقة بأصل الفونج يظل مبتوراً ما لم تتم الإشارة إلى بلاد البرنو، إذ في سنة ١٩٤٦ عدَّل آركل Arkell من تأييده المطلق إلى نظرية الأصل الشلكاوي للفونج مفضلاً موطناً في مملكة البرنو، والتي ترتبط نشأتها الأولى بهجرة عربية.(١٧)

مهما يكن من أمر الاختلاف حول أصل الفونج، فإنهم قاموا بتأسيس مملكة سنار القديمة مع العبدلاب، وقد تم ذلك في بداية القرن السادس عشر الميلادي. ولهذه المملكة إسهامها في تكوين المجتمع السوداني الحديث بوجهيه العربي الإسلامي والإفريقي.(١٨) وينسب إلى الفونج نشر الإسلام بجهدهم حتى جبال فازوغلي على الحدود السودانية الأثيوبية، وهم الآن قلة تتحدث العربية وتتوزع في الروصيرص وقلي وفازوغلي.

والهمج هم وزراء الفونج أيام دولتهم في سنار، ويدعون النسبة إلى العوضية الجعليين، والأرجح أنهم سود متعربون. وقد عرفت جبال الفونج باسمهم أيضاً لأنهم حكموها بعد الفتح المصري، وأهم مراكزهم اللعوتة جنوب الروصيرص وأبوقمي إلى الجنوب من الدمازين.(١٩)

(١٧) يوسف فضل حسن (٢٠٠٣): مقدمة في تاريخ الممالك الإسلامية في السودان الشرقي ١٤٥٠-١٨٢١، الخرطوم، سوداتك المحدودة، ص ص (٦٥-٦٦)، وانظر أيضاً:

Arkell, J.A. (1946): "More about Fung origins", *SNR,* XXVII, pp. 92-93.

(١٨) مكي شبيكة (د ت): مختصر تاريخ السودان الحديث، د ن، ط (٢)، ص (٢١).

(١٩) أورد نعوم شقير أن مركزهم يقع في جبل قلي جنوب كركوج، ولكن هذا وصف تاريخي قديم، إذ تقع قلي وجبلها جنوب شرق المزموم على مقربة من باو. انظر نعوم شقير، مرجع سابق، ص (٦٧).

يسمى واحد الهمج همجاوي وليس همجي.[٢٠] ومدلول كلمة الهمج عند سكان وادي النيل – كما يذهب عبدالمجيد عابدين – كانت تعني هذه الجماعات التي بسط عليها الفونج سلطانهم.[٢١] والهمج كلهم مسلمون، وحرفتهم الأولى الزراعة، وقد تمكَّن بعضهم من العمل في الوظائف الحكومية المختلفة.

وأما القمز فهم قبيلة زنجية موطنها الأصلي الجزء الشمالي من إقليم بني شنقول في أثيوبيا ثم الحدود السودانية الأثيوبية، حيث يتمركزون في قريتي بُمبُدي Bumbude ويارَدا Yarada جنوب مدينة الروصيرص. حديثاً زحف بعضهم نحو الشمال واستقر في مدينة الروصيرص. والقمز في مجملهم مسلمون، ويتحدثون لغتهم المحلية (القمز) كلغة أولى ثم اللغة العربية كلغة ثانية. ولهم عاداتهم وتقاليدهم الخاصة التي ما يزالون يحافظون عليها، وحظهم من التعليم ضعيف حتى الآن.[٢٢]

والقنزا قبيلة زنجية تنتشر من الكرمك إلى أورا شمالاً، ومن أهم قراهم يزن وكركم ودامو. وجلُّ أفراد هذه القبيلة ما زال على الوثنية، وهناك قلة منها مسلمة، وحظها من التعليم ضعيف، وأكثر نشاطها ينصب في الزراعة ثم ممارسة صيد الأسماك في خور يابوس.[٢٣]

وأما المابان فهي قبيلة تسكن في الحدود المشتركة بين ولاية النيل الأزرق وولاية أعالي النيل بجنوب السودان. وهي من القبائل المحلية التي ليس لها امتداد مع إثيوبيا.

(٢٠) عون الشريف قاسم (٢٠٠٢): قاموس اللهجة العامية في السودان، الخرطوم، الدار السودانية للكتب، ط (٣)، ص (١٠٢٦).

(٢١) عبد المجيد عابدين، مرجع سابق، ص (٥٣).

(٢٢) بابكر حسن قدرماري، مرجع سابق، ص (٧٠).

(٢٣) المرجع نفسه، ص (٧١).

ووفقاً لتقرير المعهد الصيفي للغويات عن السودان، تسكن قبيلة المابان ما بين نهري يابوس Yabus وتمباك Tombak في الشمال، وخور دقا Daga في الجنوب بعدد سكان قدر عام ١٩٨٧ ما بين ٢٥,٠٠٠ و٥٠,٠٠٠ نسمة.[٢٤]

ب- مجموعة القبائل العربية:

وإذا أردنا التفصيل في أهم قبائل المجموعة العربية بولاية النيل الأزرق فسينصرف الحديث إلى أربع قبائل، هي: رفاعة والكماتير وكنانة والأشراف.

أما رفاعة فقبيلة عربية من هوازن من جهينة، وهم فرعان: رفاعة الشرق ويسمون ناس أبوجِنَّة، ورفاعة الهُويْ (الغرب) ويسمون ناس أبوروف، وجميعاً جدهم رافع بن عامر.[٢٥]

يتبع المنتمون إلى قبيلة رفاعة في ولاية النيل الأزرق لنظارة رفاعة الهُويْ بشمال الفونج تحت إدارة الناظر أحمد يوسف أبوروف. وعلى الرغم من أن طبيعة هذه القبيلة الترحال المستمر، إلا أنها بدأت الاستقرار منذ أواخر القرن الميلادي الماضي في قرى متناثرة شرقاً وغرباً من الروصيرص والدمازين حتى الحدود الجنوبية لولاية سنار.

تأتي قبيلة الكماتير ضمن فروع قبيلة رفاعة، ولكننا خصصناها بالذكر دون الفروع الأخرى لكثرة أعداد أفرادها. ويسكن الكماتير (ومعهم العبدلاب) شرقي النيل الأزرق بين رنقة والروصيرص، ومركزهم كركوج.[٢٦] ويعرف عن الكماتير

(٢٤) انظر: Ethnologue report for Sudan. in: www.ethnologue.com

(٢٥) عون الشريف قاسم (١٩٩٦): موسوعة القبائل والأنساب في السودان وأشهر أسماء الأعلام والأماكن، ج (٢)، الخرطوم، شركة أفروقراف للطباعة والتغليف، ص (٩٧٨).

(٢٦) نعوم شقير، مرجع سابق، ص (٦٦).

قيادتهم لمشيخة خشم البحر التي عرفت بمشيخة الكماتير (شمال الروصيرص). وقد سادت منذ قيام دولة الفونج ثم تقلصت حالياً إلى عموديتين: السلام غرب وحاضرتها السريو، وأخرى شرقية وحاضرتها بدوس، وذلك منذ عام ١٩٩٤.[٢٧]

وأما كنانة فواحدة من القبائل العربية التي اشتهرت برعي الأبقار في مناطق السهول الخصبة جنوب سنار حتى فترة الدولة المهدية، ثم امتد مسارها جنوباً حتى وصل إلى خور يابوس. وبسبب ظروف الجفاف التي مرت بها المناطق التقليدية التي كانت تجوبها قبيلة كنانة، وبسبب اتساع رقعة الزراعة الآلية بمناطقها جنحت القبيلة للاستقرار في كثير من القرى التي تقع شمال الدمازين منذ منتصف القرن الميلادي الماضي.[٢٨]

وقبيلة الأشراف كذلك واحدة من القبائل العربية ذات الوجود المعتبر في ولاية النيل الأزرق ينتهي نسبهم إلى الحسينية، ويستقرون حالياً شمال مدينة الروصيرص في كل من حمدة وساوليل، ولهم عمودية قائمة امتداداً لنفوذ دولة الفونج باسم عمودية الأشراف.[٢٩]

ج- مجموعة قبائل غرب السودان:

وإذا انتقلنا إلى مجموعة غرب السودان الموجودة في ولاية النيل الأزرق فيمكن إرجاعها إلى مجموعات قبائل قدمت من دارفور مع قيام خزان الروصيرص وإنشاء مدينة الدمازين، وذلك في بداية الستينيات من القرن الماضي، ثم توالت هجرات أخرى منها بعد ضرب الجفاف لعدد من أقطار إفريقيا جنوب الصحراء في ثمانينيات

(٢٧) بابكر حسن قدرماري، مرجع سابق، ص (٧٣).

(٢٨) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(٢٩) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

القرن الماضي. ويمثل لنا هذا القسم الزغاوة والمساليت والفور وجلهم استقر في الدمازين وبعض القرى قربها.

د- مجموعة قبائل غرب إفريقيا:

وتضم قبائل قدمت من غرب إفريقيا واستقرت في هذه المنطقة على ضفاف النيل الأزرق منذ نحو مائة عام. ويمثل هذه المجموعة الفولاني والهوسا والبرنو.

يسكن الفولاني على ضفتي النيل الأزرق من الروصيرص والدمازين إلى حدود ولاية النيل الأزرق شمالاً، ومن قراهم الروصيرص وحمدة وأبو زور وديوا وأمبارد وعبد الخلاق وجبريل والسريو وأبوهشيم والدمازين. أما الهوسا فينتشرون في قنيص شرق والكروري وبدوس، وفي جنوب خزان الروصيرص في كل من كِرْمة ومُلُوَّه وبيشان والرقيبة وخرطوم بالليل، بينما ينتشر البرنو شمال الدمازين في قرى قوني وشن تشرب ويروا وجرماري وديوا في الشرق.[٣٠] ويعمل الفولاني الموجودون بولاية النيل الأزرق بالزراعة والرعي، ويعمل الهوسا في الزراعة وصيد الأسماك، بينما يقتصر نشاط البرنو في هذه الولاية على الزراعة. وكل القبائل التي وفدت إلى الولاية من غرب إفريقيا مسلمة ولها دور فعال في دفع عجلة التنمية.

هـ- مجموعة قبائل جنوب السودان:

أما مجموعة جنوب السودان فأعدادها قليلة بالولاية، وتمثلها أعداد من الدينكا والشلك جاءت إلى الدمازين والروصيرص بغرض العمل في الخزان والمنشآت المختلفة، وهم مسيحيون ووثنيون.

(٣٠) المرجع نفسه، ص (٧٢).

مما تقدم سرده نخلص إلى أن ولاية النيل الأزرق بها تنوع إثني كبير تمثل فيه المجموعات المحلية (الأصلية) من برتا وبرون وإنقسنا وفونج وهمج وقمز وقنزا ومابان غالبية وسط التركيبة السكانية للولاية، تليها المجموعة العربية التي تمثلها رفاعة والكماتير وكنانة والأشراف، ثم بعد ذلك تأتي مجموعة غرب إفريقيا، ثم مجموعة غرب السودان، ثم مجموعة جنوب السودان التي لها حضور ضعيف.

والذي لا شك فيه أن بعض المجموعات التي تسكن ولاية النيل الأزرق لها امتداد طبيعي في ولاية سنار التي تشاركها جزءاً من النيل الأزرق، إذ الحدود متصلة بينهما. إذن فلا عجب أن تمتد القبائل بين الولايتين.

تضم ولاية سنار التي حاضرتها مدينة سنجة عدداً من المجموعات الإثنية التي تسهم في تشكيل التركيبة السكانية في الولاية، كما تضم مدناً مهمة مثل سنار،[٣١] تلك المدينة المشهورة التي كانت عاصمة لدولة الفونج.

والحق أن ولاية سنار يمكن تقسيم أهم المجموعات الإثنية بها إلى:

١) المجموعة العربية.

٢) مجموعة غرب إفريقيا.

أما المجموعة العربية فتضم عدداً كبيراً من القبائل يمكن أن تقسم بحسب موقعها من النيل الأزرق إلى قسمين: القسم الأول، ويقع غرب النيل الأزرق (إلى

(٣١) سنار مدينة مشهورة على النيل الأزرق، كانت عاصمة لدولة الفونج، ولهم في تخريج اسمها اجتهادات كثيرة منها: أنها مركبة من كلمة سن النار، وقد سمى المؤرخ الإنجليزي كتابه عنها بالانجليزية بهذا التركيب Tooth of Fire. ومنها أنها مركبة من الكلمتين النوبيتين إسي (ماء) وآرتي (جزيرة) والنون بينهما للإضافة، فهي إسينارتي، أي جزيرة الماء. وهناك اجتهادات أخرى. ويذكر ود ضيف الله أنها انشئت بعد أربجي بثلاثين عاماً، وأن نشأتها بدأت مع دولة الفونج حين اتخذها أو اختطها عمارة دنقس عاصمة له (انظر: عون الشريف قاسم (١٩٩٦)، مرجع سابق، ج (٣)، ص (١١٣٩).

جهة الغرب من مدينة سنار) ويشتمل على قبائل عديدة أهمها اليعقوباب. واليعقوباب يقطنون بالقرب من مصنع سكر سنار ويتوزعون في أكثر من ثلاثين قرية، أهمها عمارة الشيخ هجو، والتي تمثل مركزاً لهم، والحجاج، وكاوا.[٣٢] وقد قيل إن نسب اليعقوباب يتصل بالجعليين.[٣٣]

والقسم الثاني يقع شرق النيل الأزرق ويضم عدداً من القبائل مثل الكواهلة والنفيدية والبطاحين والجعليين ويتوزعون على عدد من القرى التي تجاور النيل الأزرق مثل الشمباتة وحمدنا الله وكساب وفرح ودتكتوك. كما يوجد القواسمة، وهم أشهر قبائل سنار، ويسكنون شماليها في شرق النيل وغربه.[٣٤]

أما مجموعة غرب إفريقيا فتضم عدداً من قبائل غرب إفريقيا، أكبرها الفولاني والهوسا والبرنو الذين يتوزعون في عدد من القرى التي اشتهروا بها على الضفة الشرقية من النيل الأزرق والضفة الغربية منه، لعل أهمها مايرنو والشيخ طلحة وود فقاد وزين عابدين والحجيرات والمرفع وود هاشم وأم شوكة والسوكي وقلادميا وتريرة إبراهيم وتريرة يس وغيرها كثير.

ويشير الأمين أبومنقة إلى أن قدامى الفولاني على النيل الأزرق قد اندمجوا في ثقافة عرب وسط السودان مبكراً، مما أفقدهم كل شيء من مظاهر أصولهم، بما في ذلك اللغة. وهذا يعزى بصورة رئيسة – كما يرى – إلى وضعيتهم كأقلية وسط

(٣٢) مقابلة مع عباس الحاج الأمين (٣٨ سنة)، باحث مهتم بالتراث، بتاريخ ٢ مارس، ٢٠٠٦ بضاحية السلمة، الخرطوم.

(٣٣) نعوم شقير، مرجع سابق، ص (٦٦).

(٣٤) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

أغلبية متحدثة بالعربية، وتزاوجهم من العشائر العربية، بالإضافة إلى الوضعية المهمة لقرية الشيخ طلحة ضمن النظام الصوفيّ المتمسك به.[٣٥]

أما بقية أنحاء الولاية فيتقاسمها عدد معتبر من القبائل العربية بأعداد متفاوتة من عرب رفاعة والجعليين وكنانة والحلاوين. وينطبق هذا القول على سنجة وأم بنين وكركوج وأبونعامة وغيرها.

يتضح من السرد السابق أن ولاية سنار بها تنوع قبلي داخل المجموعة العربية بالإضافة إلى عدد معتبر من قبائل غرب إفريقيا، وتكاد تخلو من المجموعات الإثنية التي يمكن أن يطلق عليها مجموعات محلية (أصلية).

ونسبة لعدم وجود حواجز، فإنه لابد من امتداد طبيعي للمجموعات الإثنية الموجودة في ولاية سنار (على قلة تنوعها) في ولاية الجزيرة التي تجاورها وتشاركها مياه النيل الأزرق.

تختلف ولاية الجزيرة التي حاضرتها مدينة ودمدني عن الولايتين اللتين مر ذكرهما بكونها تكاد تكون مستقراً مقصوراً على المجموعات العربية بمختلف قبائلها، وهي بذلك تمثل نموذجاً لانتهاء أكثر الهجرات العربية التي قدمت للسودان. هذا بالإضافة إلى جيوب معتبرة لعدد من القبائل المختلفة التي يحتضنها مشروع الجزيرة لا سيما قبائل دار فور وقبائل غرب ووسط إفريقيا.

(٣٥) Al-Amin, Abu-Manga (1999): "Socio-Cultural, Socio-Economic and Socio-Linguistic Diversity among the Fulbe of the Sudan Republic", in *Pastoralists under Pressure? Fulbe Societies Confronting Change in West Africa*, ed. by V. Warya et al. Leiden: J. Brill, p. 57.

فيما يلي سنقوم بذكر نماذج لأهم القبائل العربية ومناطق تواجدها بولاية الجزيرة:

(أ) الحلاويون (الحلاوين): ومركزهم في ظاهر المسلمية بالقرب من الحصاحيصا، وقيل إن نسبهم يمتد إلى جهينة.[٣٦] ويقول عنهم عون الشريف قاسم في موسوعته: "قبيلة حلاوين منسوبة إلى حلو الجهني، واحدهم حلاوي وهم فرع من رفاعة يسكنون الجزيرة خاصة، وكان الحلاوين أصحاب ماشية ورعي ولما نزلوا بسهول الجزيرة اصطدموا بغيرهم من القبائل وخاصة الكواهلة".[٣٧] حالياً يتوزع الحلاويون على عدد من القرى بمعتمدية الحصاحيصا وأصبحوا أهل زراعة بمشروع الجزيرة الذي يجاورونه في السكن.

(ب) العركيون: وهم فرع من فروع قبيلة رفاعة الجهنية[٣٨] ويقول عنهم نعوم شقير: إن موطنهم أبو حراز وعبود وودمدني، وإنهم يدعون النسبة إلى جعفر الطيار من آل البيت.[٣٩] وينتشر العركيون حالياً في عدد من القرى شرق مدينة ودمدني، كما ينتشرون في عدد من قرى شمال ولاية الجزيرة.

(ج) الكواهلة: وهؤلاء ينتسبون إلى الزبير بن العوام، ومنهم بادية يسكنون غربي الرهد مع الحمدة، ومن فروعهم الحسنات.[٤٠] وللكواهلة وجود فعلي في عدد من قرى الجزيرة وشمالها على وجه التحديد.

(٣٦) نعوم شقير، مرجع سابق.

(٣٧) عون الشريف قاسم (١٩٩٦): مرجع سابق، ج (٢)، ص ص (٦٤٨ – ٦٤٩).

(٣٨) المرجع نفسه، الجزء نفسه، ص ص (٩٧٨ – ٩٧٩).

(٣٩) نعوم شقير، مرجع سابق، ص (٦٥).

(٤٠) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(د) الشنابلة: ويذكر عون الشريف قاسم أنهم من فزارة نسبة لجدهم شنبول من جهينة، واحدهم شنبلي يسكنون كردفان ودارفور والجزيرة وغيرها. وللشنابلة إبل وماشية، وهم في جملتهم بادية، أما شنابلة الجزيرة فسكنوا المدن خاصة المسلمية وما جاورها.[٤١] وقد قال عنهم نعوم شقير إنهم مشهورون بالغنى والتجارة، وقد كانت لهم مشيخة في زمن الفونج مركزها المسلمية.[٤٢] وللشنابلة أسر معروفة في عدد من قرى الجزيرة مثل الجديد (خليف) بشمال الجزيرة.

(هـ) العوامرة: وهم قبيلة عربية تنسب إلى عامر السائح، وأهم مناطق تجمعاتهم منطقة الربع بشمال الجزيرة، كما يستقر بعضهم بجنوب الجزيرة، وتوجد أعداد منهم بشمال كردفان، وقلة رعوية بجنوب الأبيض بكردفان.[٤٣] وكذلك يسكن بعض منهم المسلمية وأبوعدارة بمحلية الحصاحيصا، كما توجد قرية باسمهم في شمال الجزيرة تقع جنوب الخرطوم بنحو ٤٢ كلم.

(و) المغاربة: وهم جماعات وفدت إلى السودان قديماً من المغرب الأقصى أيام كان هناك اتصال بين الفونج وممالك السودان الغربي وبين القبائل العربية – المغربية.[٤٤] وقد قيل إنهم وفدوا من المغرب من نجعة طرومونة أيام السلطنة الزرقاء.[٤٥] يتقاسم المغاربة السكن في عدد من قرى الجزيرة مثل الهلالية وود السيد وودمدني وأبوجويلي والكاملين وأبوحراز، وذلك بشرق النيل الأزرق وغربه.

(٤١) عون الشريف قاسم (١٩٩٦)، مرجع سابق، ج (٣)، ص (١٢٦٢).
(٤٢) نعوم شقير، مرجع سابق، ص (٦٥).
(٤٣) عون الشريف قاسم (١٩٩٦)، مرجع سابق، ج (٤)، ص ص (١٦٦٩– ١٦٧٠).
(٤٤) عبدالمجيد عابدين (١٩٦٧)، مرجع سابق، ص ص (٥٧ – ٥٨).
(٤٥) عون الشريف قاسم (١٩٩٦)، مرجع سابق، ج (٦)، ص ص (٢٣٤٩ – ٢٣٥٠).

هذا ليس حصراً لما يوجد من قبائل عربية بولاية الجزيرة، فهناك الخوالدة بين ودمدني والحصاحيصا، وهناك البديرية في عدد من القرى التي تقع بين الكاملين وألتي، وغير ذلك مما لا يتسع المجال لذكره.

يتضح لنا من هذا السرد أن ولاية الجزيرة تتميز بالتعدد القبلي الذي يتفرع من المجموعة العربية، ويكاد لا يوجد فيها حالياً ما يمكن تسميته بالقبائل المحلية (الأصلية).

أما آخر جزء من النيل الأزرق يلي ولاية الجزيرة قبل أن يلتقي بالنيل الأبيض في الخرطوم فيقع في مساحة (تتبع لولاية الخرطوم) تمتد حوالي ٣٠ كلم تبدأ من قرية بتري، آخر قرية في ولاية الجزيرة، حتى الجزء من الخرطوم الذي يقع على ضفاف النيل الأزرق. والحق أن هذه المسافة التي تمتد ٣٠ كلم والتي هي نصيب ولاية الخرطوم في جوارها للنيل الأزرق ينطبق عليها ما ينطبق على شمال ولاية الجزيرة، إلا في بعض الاختلاف، ومعروف أن منطقة سوبا التي تقع ضمن هذه المساحة من ولاية الخرطوم قد شهدت حضارة لها إسهامها في تاريخ السودان القديم والحديث.

وعلى ذلك يمكن القول إن هذه المنطقة يقطنها عدد من القبائل العربية من البادراب في المناطق الشرقية للنيل الأزرق والجعليين والكواهلة. غير أن أهم عنصر يسكن هذه المنطقة هو المحس، أولئك المحس الذين نزحوا قديماً إلى هذه المنطقة وعمروها. وقد فقدوا لغتهم الأصلية منذ عدة أجيال، وأهم مناطقهم العيلفون وكترانج وغيرها. كما توجد أسر من المغاربة.

وبما أن هناك غلبة للمجموعة العربية في جميع الولايات ذات الاتصال المباشر بالنيل الأزرق التي ذكرت (عدا ولاية النيل الأزرق)، فإنه يتحتم علينا أن نفصل في هذه المسألة.

يقسم العرب تقليدياً إلى المجموعة القحطانية والمجموعة العدنانية. فالأولى تمثلها في السودان المجموعة الجهنية والثانية تمثلها المجموعة الجعلية – الدنقلاوية (وأحياناً تسمى الجعلية).[٤٦]

وقد انتبه المؤرخون والمهتمون بأنساب القبائل في السودان إلى أن نصيب النيل الأزرق من العرب هو المجموعة الجهنية التي تقابل قحطان واليمن أو عرب الجنوب في التقسيم المشار إليه. ويجب ألا يفهم من هذا أن المجموعة الجهنية متمركزة في النيل الأزرق ومنطقة البطانة التي تجاورها، إذ بينها من يعيشون في الجهات الشرقية والوسطى من كردفان مثل مجموعة فزارة ودار حامد وبني جرار والزيادية والبزعة والمعاليا وغيرها.[٤٧] وكما هو معروف، فإن أوطان المجموعة القحطانية كانت قريبة من البحر الأحمر، مما يسهِّل لها أمر عبوره. وإذا عرفنا أن عدداً كبيراً من هذه المجموعة يقيم في دارفور وكردفان أمكننا أن نقول إنهم دخلوا السودان كذلك من الشمال الغربي عن طريق درب الأربعين أو من أي مكان في الغرب. وهكذا نراهم قد دخلوا السودان من الشرق والشمال والغرب.[٤٨]

مهما يكن من أمر، ففي القرن العاشر الميلادي ازداد عدد القاطنين في السودان على ضفاف النيل الأزرق من العرب وازدادت ثروتهم حتى استطاعوا أن يلتمسوا الإذن ببناء مسجد في سوبا عاصمة المملكة المسيحية.[٤٩] وبعد ذلك قويت شوكتهم

(٤٦) عبدالمجيد عابدين (١٩٩٦)، مرجع سابق، ص (٣٠).

(٤٧) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(٤٨) محمد عوض محمد (١٩٥٦): السودان الشمالي سكانه وقبائله، القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط (٢)، ص ص (٢٠٨ – ٢٠٩).

(٤٩) عبدالمجيد عابدين، مرجع سابق، ص (٣٧).

وأصبح لهم الأثر الواضح في تاريخ السودان، وتنوعت قبائلهم حتى غطت كثيراً من مناطق مجرى النيل ودارفور وكردفان والجزيرة وغيرها، وانقسموا إلى نوعين، كما يقول نعوم شقير: حضر وبادية. أما الحضر فأكثرهم على النيل الكبير والنيلين الأزرق والأبيض وفي الجزيرة بينهما. وأما البادية فأكثرهم في البطانة وصحارى البيوضة وكردفان ودارفور.(٥٠)

ومن الصعوبة بمكان إثبات النقاء العرقي للمجموعة العربية التي تستوطن السودان الآن بما فيها تلك التي اتخذت من جوار النيل الأزرق محلاً لها، وإن تميزت ببعض العادات العربية الصرفة.

هذا فيما يخص أهم المجموعات الإثنية التي تجاور النيل الأزرق، إذ تبدأ بعناصر زنجية محلية وتتدرج حتى تصبح مجموعات عربية. فماذا عن اللغات المتحدثة في هذه المنطقة وما تصنيفها وفقاً لأهم الدراسات التي تصدت لتصنيف اللغات الإفريقية؟

اللغات على النيل الأزرق وتصنيفها:

تعتمد هذه الورقة في معلوماتها وتصنيفها للغات المتحدثة على النيل الأزرق على ثلاث دراسات مهمة، أولها أعدها تكر وبريان (١٩٥٦)، وثانيها أعدها جوزيف غرينبيرج (١٩٦٦)، وثالثها أعدها (تحريراً) هايني ونيرس (٢٠٠٠).

اتضح لنا من تناولنا لأهم المجموعات الإثنية التي تجاور النيل الأزرق من خلال تتبعنا للولايات ذات الاتصال المباشر أن ولاية الجزيرة والجزء المتاخم لها من ولاية الخرطوم تكاد تقطنها مجموعات عربية فقط. ويستنتج من هذا أن العربية هي اللغة

(٥٠) نعوم شقير، مرجع سابق، ص (٦٢).

الوحيدة التي تكاد تسود هذه المنطقة بلا منازع. كما اتضح لنا أن ولاية النيل الأزرق بها تعدد لغوي واضح ناتج من تعدد المجموعات الإثنية. أما ولاية سنار فتتقاسمها مجموعات عربية، بالإضافة إلى مجموعة غرب إفريقيا.

واستناداً على ما ذكر، فإن للعربية التي تصنَّف ضمن أسرة اللغات الإفريقية الآسيوية بالفرع السامي، حضوراً واضحاً متنامياً على امتداد النيل الأزرق. فهي اللغة الأولى، ولا يكاد ينازعها منازع حتى في مناطق التداخل والتعدد اللغويين. وتظل لغة ثانية، كما تظل اللغة المشتركة في التفاهم والمعاملات الحياتية، إضافة إلى أنها لغة التعليم والإعلام والحياة العامة.

استناداً على ما ذكر أيضاً، فإن أهم اللغات المتحدثة على النيل الأزرق، غير العربية، يمكن تناولها فيما يلي مع ذكر تصنيفها:

أولاً: اللغات التابعة لأسرة اللغات النيلية الصحراوية،[٥١] منها البرتا Berta التي يتحدثها المنتمون لمجموعة البرتا، ويسمون في السودان أيضاً بـ"بني شنقول". وتستخدم هذه اللغة على جانبي الحدود السودانية الأثيوبية جنوب النيل الأزرق.[٥٢]

(٥١) أسرة اللغات النيلية الصحراوية واحدة من أربع أسر صنَّف بها جوزيف غرينبيرج اللغات الإفريقية، وهي تنتشر جغرافياً من الحواف الجنوبية للصحراء الكبرى (مالي والنيجر) لتمر عبر تشاد، وتتمدد حاوية النصف الجنوبي للسودان، وتشمل مرتفعات أثيوبيا والإقليم الشمالي لكينيا، وتنقسم إلى ستة أفرع، هي: السنغاي، والصحراوي، والمبا، والفور، والشاري – نيلي، والكوما. انظر: جوزيف غرينبيرج (١٩٨٠): "تصنيف لغات إفريقيا"، في: تاريخ إفريقيا العام، المنهجية وعصر ماقبل التاريخ، المجلد الأول، إشراف: زيربو (اليونسكو) تورنيو (إيطاليا)، مطابع كانالي، ص ص (٣٠١ – ٣١٨).

(٥٢) A.N. Tucker and M.A. Bryan (1956): *The Non-Bantu Languages of North-Eastern Africa*. Oxford: Oxford University Press, p. 80.

يتحدث البرتا نحو ٧٠ ألف أسرة في السودان و٥٠ ألف أسرة في أثيوبيا وفقاً لإحصاء ١٩٧٠ في السودان. كما أن هناك قبائل عدة في ولاية النيل الأزرق تتحدث لغة البرتا، أهمها الهمج والوطاويط والدوالة والسركم والجبلاويون، بل هناك أعداد كبيرة من أفراد القبائل العربية التي استوطنت ولاية النيل الأزرق تتحدث لغة البرتا.(٥٣)

ومن اللغات النيلية الصحراوية بهذه المنطقة، الإنقسنا Ingassana (تسمى أيضاً تابي Tabi)، والسِلُّك Sillok، ومُلُك Molok (وتسمى أيضاً ملكن Malkan). وهذه اللغات الثلاث تتبع للمجموعة السودانوية الشرقية Sudanic Eastern.(٥٤) وتعتبر لغة الإنقسنا أشهر اللغات الثلاث وأوسعها انتشاراً، ويتحدث بها شعب التابي الذين يسمون الإنقسنا بواسطة العرب ومن بعدهم الأوربيون. ويقدر عدد المتحدثين بها ما بين ٨,٠٠٠ إلى ٢٠,٠٠٠، ولها عدد من اللهجات يتفاهم بها متحدثوها مع بعضهم البعض. وكذلك تتحدثها الشعوب المجاورة لهم.(٥٥) ومنها البرون Burun والمابان Mebaan والجمجم Jumjum. ويجمع بين هذه اللغات الثلاث أنها تنتمي إلى المجموعة النيلية Nilotic الفرع الشمالي. يتحدث البرون ١٨,٠٠٠ متحدث، ويتحدث المابان ٣٧,٥٠٠، ويتحدث الجمجم ٧,٣٥٠ متحدث.(٥٦)

(٥٣) بابكر حسن قدرماري، مرجع سابق، ص (٦٦).

(٥٤) M.L. Bender (2000): "Nilo–Saharan", in *African Languages: An Introduction*, ed. by B. Heine and D. Nurse, Cambridge: Cambridge University Press, p. 46.

(٥٥) A.N. Tucker and M.A. Bryan, *op. cit*., p. 82.

(٥٦) M.L. Bender, *op. cit*., p. 46.

ومنها أيضاً الأودوك Uduk والقلي Gule اللتان تتبعان لفرع الكوما Koma. فالأولى يتحدث حوالي ٢٠,٠٠٠ متحدث، أما الثانية فلغة منقرضة[٥٧] كان يتحدثها سكان جبل قلي والجبال المجاورة له شمال التابي. وفي الماضي كان العرب ينظرون إلى متحدثي القلي باعتبارهم الهمج.[٥٨]

ومنها القُمُز Gumuz، تلك اللغة المتحدثة بغرب أثيوبيا (والجزء المجاور لها من السودان) شمال البرتا، ويتحدثها حوالي ٩٠,٠٠٠ متحدث.[٥٩]

هذا ما كان من أمر تصنيف هايني ونيرس (مع بعض التوضيح والإضافة) للغات الموجودة بولاية النيل الأزرق والتي – كما مرّ – تتبع لأسرة اللغات النيلية الصحراوية. أما غرينبيرج فقد سبق ذلك بتصنيف مجمل أورد فيه أن اللغات التي تتبع لأسرة اللغات النيلية الصحراوية في جنوب النيل الأزرق يمكن عرضها على النحو التالي:

١- اللغات التي تتبع لفرع الكوما، وهي: كوما Koma، وقنزا Ganza، وأودوك Uduk، وقولي Gule، وقمز Gumuz ، وماو Mao.[٦٠]

٢- اللغات التي تتبع لفرع الشاري–نيلي Nile–Chari، وتتوزع هنا في مجموعتين لغويتين: مجموعة اللغات السودانية الشرقية التي تنتمي إليها لغة الإنقسنا، ومجموعة اللغات النيلية التي يضم فرعها الغربي لغة البرون.[٦١]

(٥٧) *Ibid*., idem.

(٥٨) A.N. Tucker and M.A. Bryan, *op. cit*., p. 83.

(٥٩) M.L. Bender, *op. cit*., p. 46.

(٦٠) J.H. Greenberg (1966): *Languages of Africa*. Mouton: The Hague, p. 130.

(٦١) *Ibid*., p. 85.

ومن اللغات الوافدة للمنطقة وتتبع لأسرة اللغات النيلية الصحراوية لغة البرقو (المبا).

ولما جاء تصنيف غرينبيرج مجملاً، فقد ركزنا على تصنيف هايني ونيرس الّذين لا شك قد استفادا من التصنيف المشهور الذي قام به غرينبيرج.

ثانياً: اللغات التابعة لأسرة اللغات النيجر كردفانية،[٦٢] هي لغة الفولاني Fulfulde. ولهذه اللغة حضور واضح في ولاية النيل الأزرق على العموم، وولاية سنار على وجه الخصوص. وتتبع لغة الفولاني إلى فرع غرب الأطلسي West Atlantic ضمن مجموعة لغات النيجر كنغو.

ثالثاً: اللغات التابعة لأسرة اللغات الإفريقية – الآسيوية،[٦٣] وهي العربية التي تتبع للفرع السامي، والهوسا التي تتبع للفرع التشادي.

من خلال تتبعنا لتصنيف اللغات المتحدثة على ضفاف النيل الأزرق منذ دخوله أرض السودان إلى التقائه بالنيل الأبيض في الخرطوم نستنتج الآتي:

(٦٢) أسرة اللغات النيجر كردفانية واحدة من أربع أسر صنَّف بها جوزيف غرينبيرح اللغات الإفريقية، وتضم مجموعتين هما: مجموعة النيجر كنغو والمجموعة الكردفانية، وتنشطر المجموعة الأولى إلى ستة أفرع، هي: غرب الأطلسي، والماندي، والقور، والكوا، والبنوي– كنغو، وآدماوا الشرقية. لمزيد من التفاصيل انظر: J.H. Greenberg, *op. cit*., pp. 8-9.

(٦٣) أسرة اللغات الإفريقية–الآسيوية أيضاً واحدة من أربع أسر صنَّف بها جوزيف غرينبيرج اللغات الإفريقية، وكانت تسمى بأسرة اللغات الحامية السامية، وتضم ستة أفرع، هي: البربري، والتشادي، والمصري القديم، والسامي، والكوشي، والأوموتي. لمزيد من التفاصيل انظر:

R.J. Hayward (2000): "Afro-Asiatic" in B. Heine and D. Nurse, *op. cit*., pp. 76-82.

١- إن أغلب اللغات المتحدثة في المنطقة تنتمي إلى أسرة اللغات النيلية الصحراوية.

٢- إن أسرة اللغات النيجر كردفانية تمثَّل بلغة ذات حضور معتبر وهي اللغة الفولانية.

٣- إن أسرة اللغات الإفريقية – الآسيوية عبر اللغة العربية رغم عدم وجود إحصاءات علمية، تكاد تغطي جميع ضفاف النيل الأزرق، إما كلغة أم للمجموعات العربية أو للتي انقرضت لغتها مثل القلي، أو لغةً ثانيةً لتلك القبائل التي تتحدث لغاتها المحلية كلغة أم. كما تمثل العربية اللغة المشتركة Lingua franca في عدد من مناطق ولاية النيل الأزرق التي تعد واحدة من المناطق الأكثر تعدداً في اللغات بالسودان .

خلاصة:

تخلص هذه الورقة إلى أن النيل الأزرق تجاوره أعداد معتبرة من المجموعات الإثنية لا سيما في ولاية النيل الأزرق التي تعد من أكثر مناطق السودان ثراءً في هذا المجال. أما ولاية سنار فتكاد تتقاسمها المجموعة العربية ومجموعة غرب إفريقيا، بينما تمثل ولاية الجزيرة والجزء المتصل بها من ولاية الخرطوم مكاناً نموذجاً للتنوع القبلي داخل المجموعة العربية. إذن كلما اتجهنا من نقطة دخول النيل الأزرق نحو الخرطوم التي تمثل النقطة النهائية له، قلّت القبائل المحلية (الأصلية) فاسحة المجال للمجموعة العربية.

كما تخلص الورقة أيضاً إلى أن النيل الأزرق تتحدث حوله أعداد معتبرة من اللغات تمثل ثلاث أسر من تلك الأربع التي صنَّف بها جوزيف غرينبيرج اللغات الإفريقية، وتعد ولاية النيل الأزرق أكثر مناطق النيل الأزرق تعدداً في اللغات، تليها بفرق كبير ولاية سنار. أما ولاية الجزيرة والجزء المتصل بها من ولاية الخرطوم

فيكادان يكونان وقفاً على اللغة العربية. وبالطبع، كلما اتجهنا من نقطة دخول النيل الأزرق نحو الخرطوم قلَّت أيضاً اللغات المحلية (الأصلية) وزادت مساحة انتشار اللغة العربية حتى تتم السيطرة لها.